الحرية هي حصن الأمة المنيع

الدكتور عبد الستار قاسم

5/شعبان/ 1423

من يقي العراق الضربة أو يجنبه الغضب الأمريكي العسكري؟ أهـو روسـيا أم قـوة الـنقض الفرنساوية والصينية، أم هو طواف القادة العراقيين حول العالم يبحثون عن مناهضين للحرب؟ قد تساعد دول العالم بعض الشيء وقد تساعد دول العربية معدودة قليلا لكن النصير الأول يجـب أن يكون شعب العراق. القوة تنبع من الداخل وقد ترفدها قوى خارجية، بالضبط كمـا أن الضـعف ذاتي أولا قد تغذيه ظروف وقوى خارجية. الاستعداد الذاتي هو العمود الفقري للنجاح أو التقـدم، وإذا غاب فإن كل قوى الأرض لن تكون عوضا عنه. ربما في حال الأمة العربية مثل، إذ تجلس الأمة على بحر من الثروة وتمتد على مساحة شاسعة وعددها كعدد حبات الرمل، لكنها لا تمتلـك الاستعداد الذاتي لأن تكون فكانت الحفر بيئتها المناسبة.

إذا أراد نظام عربي أن يبني دولة حقيقية وأن يكون رياديا بين الدول فإنه لا بد أن يصـر علـى شعب قوي. الدولة لا تكون بشعب ضعيف، والضعفاء لا يقوون إلا على صناعة هيكل دولـة لا يرتقي أبدا إلى دولة حقيقية. وهنا لا أتحدث عن دولة كما تصفها المعايير الدولية وإنما عن دولـة حسب معايير الحداثة والتقدم والمشاركة الشعبية العامة وقيم احترام الـذات والكبريـاء. حسـب المعايير الدولية، لدينا دول عربية كثيرة؛ أما حسب معايير السيادة والمشاركة والاحترام فيصعب علينا الإقرار بوجود دولة واحدة. ربما يجرؤ أحدنا ويصنف لبنان كدولة.

الشعب القوي هو الشعب الحر ذلك لأنه قادر على تطوير قيم التفكير الحر والإبداع والتفاعل مـع الآخرين ومشاركتهم ضمن رؤى العمل الجماعي والتعاون المتبادل. المجتمع الحر هو بالضرورة قوي لأنه يستطيع النهوض أخلاقيا ومن ثم سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، ويستطيع مواجهة الأزمات ومعالجة الهموم والسيطرة إلى حد كبير على الظروف التي تطرأ. إنه يتـأثر بالعوامـل الخارجية ويدفع ثمنا أمام قسوتها وتحدياتها، لكنه لا يستكين لها. قيم الحرية تتناقض تماما مع قيم الاستكانة والخضوع، وتبقى محركا حيويا نحو الإنجاز والاكتشاف والأخذ بزمام المبادرة.

أنظمتنا العربية لم تحرص على حرية الشعوب وانطلقت من ظنون أن العرب قاصرين ويحتاجون لمن يأخذ بيدهم حتى مرحلة البلوغ. مرت السنين والشعوب العربية ما زالـت مراهقـة، حسـب حكامها، ولا تقوى على العيش ضمن أجواء الحرية. اكتفت الأنظمة بأن فيها من يعرف كل شيء ويستطيع وحده أن يفكر عن الجميع ويتخذ القرارات الحكيمة والشجاعة. وقد ثبت أمام العالم أجمع أن حكمة الحكام قد وضعت العرب في درك أسفل من المهانة والإذلال. أصر حكام العرب علـى أنهم قادة شعوب من العبيد فلم يكونوا حقيقة إلا رؤساء وملوك عبيدا لا تستهويهم القمـم. رئـيس العبيد عبارة عن عبد حتى لو لبس حلة السادات.

من هنا يجب أن نفهم الوضع في العراق وفي باقي الدول العربية. (لو) كنا صادقين وطبق حكامنا الشعارات التي يتحدثون بها أمام وسائل الإعلام لكنا أقوياء يصعب على ظروف أو أمم أن تكسر شوكتنا. بكل سهولة تستنفر الولايات المتحدة بعض قواتها وتطوف على مواقع الـوطن العربـي فتضرب ما تشاء من الأهداف وهي تعلم مسبقا أن العرب يكادون لا يقوون على صـياغة بيـان

شجب بقوة الحدث. ترك قادة العرب أنفسهم عراة وعروا معهم بقوة السلاح والمخـــابرات أبنـــاء الأمة، فأصبحنا هدفا لكل من أراد الانتصار.

ماذا كان من الممكن أن يحصل (لو) أنشيء العربي على حب الوطن ولـــيس الـــولاء للقائـــد أو الخوف منه. كان من الممكن أن نرى ارتباطا وثيقا بين العربي ووطنه وأبناء أمتـــه، وأن نـــرى غيرة وتفانيا. كان من الممكن ألا نرى مظاهرات في الشوارع مدفوعة دفعا مـــن قبـــل الأجهـــزة الأمنية لتثبت أمام وسائل الإعلام أن الجماهير ملتفة حول قائدها، ولوجدنا الناس منهمكـــين فـــي العمل والإنتاج بدل التلهي بإضاعة الوقت في نشاطات تظاهرية تضر ولا تنفع. كان من الممكـــن ألا يتحرق العربي على تأشيرة من دولة أجنبية ليهاجر هربا من القمع والاســـتعباد، وكـــان مـــن الممكن أن يبقى العلماء والخبراء داخل وطنهم يقدمون الخدمات طمعا في رفعة الأمـــة وعزتهـــا. وبالتأكيد كنا سنجد عددا أقل من الجواسيس الذين لديهم الاستعداد لخيانة وطنهم وشعبهم.

الشعب الحر يقدم التضحيات من أجل أن يبقى حرا في وطن حر، والشعب المستعبد يكره الـــوطن ويكره الشعب والأمة. وهذا ما يميز الصامدين المحاربين من الأذلاء الخائفين المستسلمين. العبـــد بارع في الهريبة، والحر عنيد في الصمود. ولهذا هناك خشية دائما مـــن أن تســـتقبل الشـــعوب العربية غزاتها كرها بحكامها. ولا يخفى على أحد أن أصواتا كثيرة في الوطن العربي ارتفعـــت تمجد الاستعمار مقارنة بما فعله حكام العرب من تنكيل وفساد وتبذير للأموال. من اليسير أن نجد مثقفا يتمنى لو بقي الاستعمار في بلادنا لما يرافق استغلاله بعض التقدم.

ماذا كان من الممكن أن تفعل أمريكا أمام العراق لو كانت تعلم أن الشعب عبارة عن كتلة واحـــدة أمام التحديات والأخطار والغزاة؟ ستفكر أمريكا بأن الحرب حرب الشعب وأن أبنـــاءه ســـيقاتلون بشراسة دفاعا عن أنفسهم ووطنهم. وستدرك قطعا أنهم إن لم يستطيعوا النيل منهـــا فـــي ســـاحة الحرب المباشرة سيعملون على الانتقام بطرق أخرى غير مباشرة. ربما يهب أهل العـــراق فـــي عمليات استشهادية أو في مبادرات أخرى تكيل الصاع بالصاع. وقد رأينا أمثلة بأم أعيننـــا فـــي مواجهاتنا مع إسرائيل. ففي غياب الحرية والتعبير عن مشاعر الانتماء للأمة والوطن كـــان مـــن السهل أن يترك الجندي العربي موقعه تاركا معداته لتتحول إلى غنائم. اعتاد الجنـــدي الخضـــوع عند صور الرئيس والهتاف باسم الرئيس والتغني بالرئيس وزوج الرئيس وأهله، واعتاد الهـــوان أمام المراتب العليا والقمع والحاجة. ولماذا يحارب إذا كان النصر نصر الرئيس والهزيمة هزيمته هو؟ ولماذا يخوض الغمار إذا كان في موته ضياع لزوجه وأطفاله؟

الاستبداد يصنع الضعف، والضعف يولد أطماع الآخرين؛ وبذلك يكون الاستبدادي قد جلب الدمار على نفسه وعلى الآخرين. وعلى هذا تراهن أمريكا فيما تراهن عليه في حروبها ضـــد العـــرب. إنها تحارب أناسا قرروا هزيمة أنفسهم لينجوا بجلودهم أمام هزائم الأعداء. وإذا كان لقائد عربي أن يقنعنا بحرصه على الأمة فإن عليه أن يحرر شعبه أولا من أجهزة المخابرات ويبدأ حياة عامة مفتوحة أمام مشاركة الجميع. هنا تبدأ مسيرة القوة التي تشكل الحصن المنيع حتى لو لـــم نمتلـــك ذلك السلاح التدميري الذي يمتلكه الطامعون.